# البعد التداولي لتحول عصا موسى

إعداد


أ.د / أحمد عبد العزيز دراج

أستاذ علم اللغة المقارن- آداب بني سويف

**الملخص:**

تناول الخطاب القرآني ثلاثة ألفاظ للتعبير عن التحول الوظيفي لعصا موسى باعتبارها آية من آيات الله التي تدل على نبوة موسى، وهذه الألفاظ الثلاثة هي : الحية التي أخبر عنها بالسعي، والثعبان المنعوت بالعظيم، والتعبير" ما في يمينك " المخبر عنه بالجملة " تلقف ما يأفكون "، ولكن الأمر العجيب أن استخدام كل لفظ عبر عن دلالة أخرى حسب مقتضى الظروف المحيطة بالخطاب، بحيث لا يمكن أن تستبدل الكلمة لتحل محل الكلمة الأخرى في سياقها، فكل تركيب –مع تغير المفردة- يحمل محتوى قضويا بمعنى جديد. والمتدبر للخطاب القرآني يلحظ أن عصا موسى قامت بأدوار وظيفية متعددة خارج وظيفتها الكونية.

**مقدمة:**

اللغة العربية إحدى اللغات الطبيعية التي تتميز بالغنى الدلالي، حيث يحمل اللفظ الواحد معان و إيحاءات متعددة تحسمها خصوصيات السياق والتواصل، فهل يعد هذا الثراء والتعدد الدلالي نقيصة ومكمن ضعف أم إضافة وقوة تمنح أبناء اللغة قدرة أكبر للتعبير بدقة عن أغراض المتكلم وتفاعل المتلقي مع مقاصد الخطاب ؟

لقد ذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى تشقيق المعنى(١) إلى ثلاثة مستويات متفاوتة تكشف الأبعاد الدلالية التأويلية للمفردات والتراكيب اللغوية، ويتوقف إدراك مستويات المعنى المتعددة للمفرد والتركيب على المعرفة المشتركة لكل من المرسل والمتلقي في فهم دلالة تلك الوحدات الدلالية : فالمستوى الأول للمعنى هو المستوى اللغوي الذي يؤخذ من الدلالة المباشرة للكلمات، أما المستوى الثاني فهو المستوى السياقي الذي

يؤخذ من علاقة عناصر التركيب ببعضها، بينما يكمن المستوى الثالث للمعنى في البعد الاستعمالي والمقاصدي الموجود بالقوة.

ويحذرنا صاحب مداخل إعجاز القرآن- وأحسبه مصيبا فيما ذهب إليه- من أمرين عظيمي الخطر على العقل والفهم والنظر، هما : الاستهانة والإهمال، فالأول، ترك الاستهانة بالفروق البينة والخفية بين الألفاظ التي نتوهم بطول العادة أنها تقع على معنى واحد وقوعا واحدا وهو ما نسميه في اللغة ( المترادف )، والثاني، إهمال تاريخ بعض الألفاظ المترادفة في أوهامنا، ولابد من متابعة البحث عن نشأتها : متى نشأت ؟ ولم نشأت ؟ وكيف نشأت ؟ وما الفرق بينها ؟ ثم كيف وقع الترادف بين كل لفظين منهما حتى استويا في معنى واحد، فاصطحبا فاعتدلا في الاستعمال، أو تزاحما فغلب أحدهما الأخر على الألسنة، وما يفضي إليه ذلك من الخلط التلبيس على العقل(٢).

ودفعا لتوهم الترادف في المعنى بين ألفاظ وردت في سياقات مختلفة لتحول عصا موسى يناقش هذا المقال نموذجا لفظيا وتركيبيا مختارا من قصة موسى في ضوء الأبعاد التداولية التي تعنى بمقاصد الخطاب ودور السياق غير اللغوي في عملية التواصل من خلال بيان دور المشاركين- في الحدث- بشكل مباشر أو غير مباشر في تحديد المقاصد : المتكلم/ المنشيء ومقاصده، والمخاطب/ المتلقي وعلاقته بالمرسل ودوره في صياغة الخطاب، ومستوى المعرفة المشترك بين طرفي الخطاب والزمان والمكان ..الخ، وأهمية اختيار اللفظ المناسب الذي يساعد المتلقي على استخلاص جميع أبعاد الخطاب دلاليا، مع الأخذ في الاعتبار خصوصية الخطاب القرآني وهذا النموذج هو :

## التطور الوظيفي لعصا موسى

تناول الخطاب القرآني ثلاثة ألفاظ للتعبير عن التحول الوظيفي لعصا موسى

باعتبارها آية من آيات الله التي تدل على نبوة موسى عليه السلام، وهذه الألفاظ الثلاثة هي : الحية التي أخبر عنها بالسعي، والثعبان المنعوت بالعظيم، والتعبير" ما في يمينك " المخبر عنه بالجملة " تلقف ما يأفكون "، ولكن الأمر العجيب أن استخدام كل لفظ عبر عن دلالة أخرى حسب مقتضى الظروف المحيطة بالخطاب، بحيث لا يمكن أن تستبدل الكلمة لتحل محل الكلمة الأخرى في سياقها، فكل تركيب –مع تغير المفردة- يحمل محتوى قضويا بمعنى جديد.

والمتدبر للخطاب القرآني يلحظ أن عصا موسى قامت بأدوار وظيفية متعددة خارج وظيفتها الكونية باعتبارها عودا جافا وصلبا من النبات أو ما أشبه فيستخدمها الراعي لتوجيه وزجر الحيوانات وضربها، كما يستخدمها الإنسان في وظيفة التأديب والزجر فيقال العصا لمن عصى، وتستخدم أيضا للاتكاء والاستناد عليها، وقد استخدم لفظ العصا في الأمثال العربية فقرع العصا لتنبيه الحكماء وتفطينهم إلى الصواب إذا حادوا عنه، ويقال : فلان لا يضع عصاه لكثرة أسفاره، كما يقال : فلان رفع العصا إذا سار في طريق السفر، وألقى عصاه إذا نزل و أقام بالمكان، وضرب بالعصا المثل في اجتماع الشمل و انشقاق العصا دليل تفرق(٣)، ولكن عصا موسى كآية كان لها شأن آخر في الخطاب القرآني، أولها، إنها تحولت من مجرد عود صلب إلى مصدر قوة وسلطة عظيمة، وثانيها تعدد وظائفها الخارقة لناموس الحياة، فعندما ضرب بها موسى البحر تجمد الماء وتحول من خاصية السائل إلى خاصية الصلابة للجليد، وعندما ضُرب بها الحجر الصلد شديد القساوة انفجر منه الماء سائلا عذبا يشرب منه بنو إسرائيل حسب أسباطهم، وفي الحالة الثالثة تحولت العصا من جماد صلب إلى كائن حي سريع الحركة كأنه جان وولي موسى منه مدبرا، وصورتها الأخيرة تطورت عبر مراحل الخطاب.

وعليه، فإن عصا موسى مرت بعدة مراحل تغيرت فيها وظائفها على النحو

الموالي :

## أولا : مرحلة التأسيس المعرفي

تتجلى هذه الوظيفة المعرفية الأولية في سورة طه :

تبدأ مرحلة التأسيس المعرفي بقوله تعالى ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ طه / ١٧. حيث تتصدر ما الاستفهامية أسلوب الاستفهام عن ماهية الشيء الذي يحمله موسى بيده، ولكن أسلوب الاستفهام لا يناسب القوة الإنجازية للغرض الأسلوبي؛ لأن الله ﷻ يعلم خافية الأعين وما تخفي الصدور، وهو عالم بماهية الأشياء في الكون وما في يمين موسى عليه السلام شيء ظاهر لا يتطلب السؤال عن اسمه أو ماهيته، أو وظيفته في ناموس البشر، وبالتالي فإن أسلوب الاستفهام يخرج عن دلالته الظاهرة إلى غرض تواصلي يحكمه السياق وما تضمه العناصر مشاركة في الحدث، وما يقتضيه المقام من المنشيء والمتلق وزمان ومكان الحدث:

١- المنشيء المنفذ : رب العزة ﷻ.

٢- المتلقي أو المتقبل : موسى عليه السلام منفردا.

٣- المكان : الوادي المقدس ( جبل الطور بسيناء ).

٤- الزمان : إحدى ليالي الشتاء الباردة عند عودة موسى من مدين مع أهله إلى مصر.

٥- الموضوع : العصا.

فالعلاقة بين المنشيء/ المرسل، والمتلقي، وموضوع العصا كالتالي: علاقة الله بنبيه موسى علاقة ربوبية المُربِّي بالمُربَّى، وقد وصف الخطاب القرآني تلك العلاقة في أجمل تعبير فقال ﷻ ﴿ ولتصنع على عيني ﴾، يعني أن رعاية الله لموسى بدأت منذ أن

كان في علم الغيب جنينا في بطن أمه، ويشير كل من المكان والزمان إلى خصوصية اختيار وقت ومكان اللقاء الأول عند عودة موسى بأهله إلى أرض مصر.

إذن فأسلوب الاستفهام خرج عن دلالته العرفية المتداولة إلى تنبيه موسى لتقرير ما استقر في نفسه من وظائف ما يحمله بيمينه، ولذلك كان رد موسى ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ طه/١٨. وهو ما يعني أن إقرار موسى بملكية العصا وتحديد وظائفها الذاتية في وظيفتين تقليديتين هما : الأولى، الاستناد والتوكؤ على العصا. الثانية، ويسوس بها الغنم ويضرب الشجر لإسقاط الأوراق لإطعام الغنم، أما الوظيفة الثالثة فتضم وظائف عارضة مفتوحة على ما لا يمكن حصره من وظائف ثانوية بقوله ﴿ ولي فيها مآرب أخرى ﴾ ولم يشأ موسى أن يعرب عنها في حضرة رب العزة ربما يكون تأدبا وإجلالا وتقديسا للمولى عزوجل، ولأن خطاب رب العزة ﷻ لموسى خطاب موجه نحو وظيفة تخرق قواعد ناموس الحياة بإحدى آيات الله العجيبة فقد أمره ﷻ بطرحها ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ طه / ١٩. لأنه ﷻ يعلم ما سيطروا في المستقبل القريب على العصا لتتحول إلى الصور الثعبانية المتعددة أمام فرعون وسحرة فرعون، فأراد الله أن يثبت عوارض العصا وتحولها في نفس موسى حتى لا يتملكه الذعر والفزع فيتعود على ما يعتريها من تغير كآية من آيات ربه الكبرى.

## ثانيا : مرحلة التحول الوظيفي الأول ( الحية )

امتثل موسى لأمر ربه على الفور وألقى عصاه ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ طه / ٢٠.، فالفاء للتعقيب وإذا تدل على التحول المفاجئ للعصا إلى حية تزحف

على الأرض بسرعة، والحية هي رتبة من الزواحف، تطلق على الذكر والأنثى، ومنها أنواع كثيرة، وتدل عناصر السياق السابق واللاحق أن غرض المرسل ﷻ ليس تخويف موسى وإرعابه، بدليل بيان حالها حينئذ بالجملة " تسعى " وقوله تعالى في السياق القريب ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ طه / ٢١. بل كان الغرض بث الثقة في نفس موسى؛ لأن الحية عادت إلى هيئتها الأولى بمجرد إمساك موسى بها.

## ثالثا : مرحلة التحول الوظيفي الثاني ( الثعبان المبين )

إذن، لقد كانت عملية التحول هي التجربة العملية الأولى لتأهيل موسى وإعداده لمواجهة فرعون في المرحلة التالية عندما قال فرعون لموسى ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ الأعراف / ١٠٦. فسياق الآية يتضمن قضية التحدي لموسى والطعن في صدق رسالته بالتبليغ عن رب العزة، فكان جواب موسى عمليا يتمثل في قوله ﷻ ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ الأعراف / ١٠٧.

وبما أن العناصر اللغوية المشاركة في الحدث تتألف من:

١- المنفذ : موسى

٢- المتلقي / المتقبل : فرعون

٣- المكان : قصر فرعون والحضور جمع من حاشيته

٤- الزمان : مجهول نسبيا، ولكنه بعد التكليف وقبل حشد السحرة

٥- الموضوع : العصا

معظم تلك العناصر هي عناصر سياقية جديدة، حيث لم يتبق من عناصر السياق في الآية الأولى سوى: العصا وموسى، إلا أن وظيفة موسى تحولت من متقبل إلى منفذ للحدث، واستحدث في السياق مكان وزمان ومتقبل الحدث، وتبدلت علاقة المنفذ بالمتلقي من الرعاية والرحمة إلى العداء والتحدي، وتغير مكان وقوع الحدث إلى قصر فرعون بما فيه من أعوان وحاشية لا يخيفهم حية صغيرة تزحف وتتحرك بسرعة يمكن القضاء عليها، ولذلك تطلب المشهد استخدام لفظ يناسب التحول الوظيفي للعصا والغرض من الخطاب، فكان اختيار الخطاب القرآني للفظ الثعبان الذي يدل على الذكر العظيم الضخم من الحيات الطويلة ذات الشعر أوفق ومنسجم سياقيا، فقد نعت الثعبان بالعظيم لبيان أنه ليس مجرد كائن حي صغير وضعيف يزحف على الأرض، بل ثعبان ذكر ضخم يلقي الرعب في نفوس مشاهديه وهم فرعون وملئه، ولو استخدم الخطاب القرآني لفظ حية تزحف مكان ثعبان عظيم لما كان التركيب مناسبا للغرض من الخطاب ووصف حالة الذعر التي انتابت شهود الواقعة، وقد أدت العصا بذلك الوظيفة التي قدرها الله لها، وجعلت كهنة فرعون وأعوانه يحثونه على استدعاء كبار السحرة من شتى بقاع مصر ليقفوا أمام موسى ما ظنوا أنه عمل من أعمال السحر، فقال الملأ من قوم فرعون ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾ الأعراف / ١٠٩، ثم تنتقل العصا-بعد ذلك- إلى مرحلة أخرى تناسب الحشد العظيم من السحرة وجموع الشعب في يوم الزينة.

## رابعا: التحول الوظيفي الثالث (المعنى المبهم)

ثم بدأ حشد فرعون وملئه لمنازلة موسى بالسحر، فاستدعى السحرة من كل أرجاء الأرض ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ

﴿ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾ الأعراف / ١١٣.، وبدأ المشهد العظيم وكبار السحرة يفاوضون فرعون على جائزة الفوزقبل منازلة موسى وهزيمته أمام جموع المشاهدين في يوم الزينة والاحتفال السنوي، وخير السحرة موسى بين إلقاء عصاه أو يبدأوا هم بإلقاء عصيهم قبله، فبادر بتقديمهم ليلقوا أولا ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ طه / ٦٦ ، ورغم معرفة موسى المسبقة وتعوده على رؤية تحول العصا إلى الهيئة الثعبانية، إلا أن الخوف تسرب إلى نفسه كما عبرعنه الخطاب القرآني بقوله ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ طه / ٦٧. وهذا يعني أن موسى الإنسان تأثر بمشهد الحيات الكثيرة، لذلك استدعي الخطاب القرآني ما استقر في المخزون الذهني لموسى وتذكيره بالتركيب الخاص بلقاء موسى الأول بربه بقوله ﷻ" ألق مافي يمينك " أي العصا ليزيل الخوف من نفسه في قوله تعالى ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ طه / ٦٩.

وتتألف عناصر الخطاب في الآية من العناصر التالية :

١-المرسل : الذات الإلهية

٢-المتلقي : موسى

٣-المكان : مكان الاحتفال السنوي وهو مكان واسع لتجمع الجماهير

٤-الزمان : يوم الزينة

٥-الموضوع : ما في يمين موسى

٦-شهود الحدث : فرعون، والسحرة ، الجموع المحتشدة من الناس

يبدو من سياق الآية الأخيرة أن ما في يمين موسى لم يكن مجرد عصا تتحول إلى

حية تسعى، أو ثعبان ذكر عظيم أشعر، بل تحولت العصا إلى شيء عظيم مبهم يلقي الرعب في قلوب مشاهديه وهو ينقض على جميع عصي السحرة وأحبالهم ويبتلعها جميعا لتكون آية عجيبة، والآية لم تدع للسحرة منفذا للهروب من الحقيقة بأن موسى نبي من عند الله، وليس بساحر لأنهم أخبر من غيرهم بالسحر والسحرة.

وبذلك تكون عصا موسى قد اكتسبت خاصية الكائنات الحية على ثلاث هيئات : هيئة حية تسعى، ثم هيئة ثعبان ضخم، ثم هيئة كائن حي مبهم، وما يرجح ذلك –عندي- إن الإحالة باسم الموصول " ما " للتعظيم وزيادة في الإبهام والتعجيب مما يُرى من عصا موسى؛ لأن الثعبان الضخم عندما يلقف الحيات الصغيرة التي المتحولة بفعل السحر، ربما يكون أمرا منطقيا غير خارق لناموس الحياة عند الإنسان، لأننا نرى أن افتراس الحيتان الكبيرة للأسماك الأصغر حجما يعد أمرا طبيعيا، أما أن تلقف تلك العصا كل هذه الحيات التي تقدر بالمئات أو الآلاف بأشكال وأحجام متفاوتة، فإنه الأمر الأعجب الذي يؤدي إلى ذهول المشاهدين، إذن فقد تطورت وظيفة عصا موسى حسب اختلاف وتباين علاقة المرسل بالمتلقي والشهود والموضوع والمكان والزمان، فقد كانت التجربة الأولى لإظهار الآية المعجزة في تحول العصا بغرض نزع الرهبة من قلب موسى وتعوده على مشهد التحول، وفي التجربة الثانية تطورت وظيفة العصا أمام فرعون وملئه وتحولت إلى ثعبان ذكر عظيم أشعر مخيف، وتحولت وظيفة العصا للمرة الثالثة عند لقاء موسى بجمهور السحرة وفي حضور أعداد غفيرة من الناس يوم الزينة لتكون الآية أمرا أكثر عجبا وأكبر حجة تقنع المشاهد بنبوة موسى، فالقصد من آية العصا مختلف باختلاف المتلقين والمشاهدين على التوالي : موسى النبي، فرعون وأعوانه، جموع المتمرسين في مهنة السحر والجمهور العظيم من مشاهدي آية من آيات الله، ثم يكون دور المتلقي الكوني لقصة تحول العصا في تصور المشهد واستحضاره بجميع

جزئياته، وهذا ما يؤكد على أهمية جميع عناصر السياق في اختيار اللفظ الذي يناسب الغرض من التواصل والدلالة المقصودة بدقة لفظية وتركيبية غاية في الإحكام.

## الهوامش:

١ يراجع : محمد أحمد نحلة، آفاق جديدة في علم اللغة ، ص ١٠-١٣
٢ بتصرف محدود : محمود أحمد شاكر، مدخل إعجاز القرآن، ص ١٢٣
٣ يراجع : ابن منظور، لسان العرب، ١٥ / ٦٣- ٦٥